عبدالوهاب المسيري *

الصهيونية في مائة عام (٤/٤)

(الصفحات ١٧٩ – ٢٠٦)

ملخّص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن حقيقة الصهيونية بأسلوب تحليلي تفسيري بمعزل عن الخطاب التآمري والتعبوي. والأسلوب التفسيري لا يعني رفض الواقع الموضوعي، بل يعني الجمع بين الموضوعية والذاتية، ويحاول المقال أن يطرد الأوهام التي تساور المهزومين بشأن الحركة الصهيونية من قوة وقدرة على التنبؤ.

ويتطرق المقال إلى تعريف الصهيونية والتاريخ اليهودي و وَهم الوحدة اليهودية وأسباب ظهور الصهيونية.

أزمة الصهيونية

يمكننا القول بأن المرحلة الأخيرة في تاريخ الصهيونية هي مرحلة الأزمة ويتصور بعض المحللين أن قصة الدولة الصهيونية هي قصة نجاح ساحق ماحق. ومما لا شك فيه أن هذا الكيان قد حقق كثيرًا من النجاحات، من أهمها تأسيس الدولة الصهيونية، وقمع المقاومة العربية، وإلحاق الهزيمة بالعرب في عدة حروب نظامية، وكسب المعركة الإعلامية. ولكن قصة النجاح هذه لم تستمر إلا حتى عام ١٩٦٧ فبعده جاء الانسحاب من جنوب لبنان، وأخيرًا انتفاضة الأقصى والاستقلال.

---

* – باحث مصري متخصّص في القضية الفلسطينية وتاريخ الصهيونية.

ويجابه المجتمع الاستيطاني الصهيوني أزمة عميقة متشعبة متشابكة جوانبها حتى أن عبارة «أزمة الصهيونية» أصبحت مصطلحًا أساسيًا في الخطاب السياسي الإسرائيلي، ولا تخلو صحيفة إسرائيلية من عبارات، مثل: «هل نغلق دكان الصهيونية»، و«الملك [أي الصهيونية] يحتضر»، و«صهيونية دون روح صهيونية»، و«انحسار الصهيونية».

وهذه الأزمة تتصاعد مع التراجع العسكري المستمر، وإن كانت أسبابها تضرب بجذورها في بنية الكيان الصهيوني ذاته، وهي تعبر عن نفسها على مستويات عدة من بينها ما يلي:

١ ـ تساقط الإجماع الصهيوني وظهور إجماع المستوطنين:

تساقطت وتفككت كثير من بنود الإجماع الصهيوني حتى أن دارسي الكيان الصهيوني يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعد هي الأيديولوجية التي تهدي المستوطنين في سلوكهم ولم تعد هي الإطار الذي يدركون العالم من خلاله. وهذا القول ـ في تصوري ـ صحيح إلى حد كبير، ولعل أكبر دليل على هذا هو الفتور وعدم الاكتراث تجاه المؤتمرات الصهيونية. انظر على سبيل المثال ما حدث في المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثين الذي عقد في القدس في ديسمبر ١٩٩٧. وصل عيزرا وايزمان رئيس الدولة، وبنيامين نتنياهو رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما، ولم تعر الصحف الإسرائيلية المؤتمر اهتمامًا كبيرًا، ونشرت أخباره في مقابل صفحة الوفيات.

وفي المؤتمر الثاني والثلاثين الذي عقد في القدس في يوليو ١٩٩٢ أحس الجميع بأن «المولد الصهيوني» قد أوشك في الانفضاض، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت «عظامًا جافة» و«هيكلاً بدون وظيفة» (ميزانية المنظمة ٤٩ مليون دولار مقابل ميزانية الوكالة اليهودية التي بلغت ٤٥٠ مليون دولار). وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية: «هل مازالت هذه المؤسسة قائمة؟» وقد استنفد معظم الوقت في تدبير التعيينات في المناصب والصراع على الوظائف رغم أنه كان قد وافق على معظمها قبل المؤتمر.

وقد أثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية ـ من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية ـ حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن

المؤتمرات تحولت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، التي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المختلط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية مما يكرس عزلتها.

ولعل ظهور «ما بعد الصهيونية» هو تعبير عن مدى عمق أزمة الأيديولوجية الصهيونية. ويصاحب ظاهرة ما بعد الصهيونية ظاهرة المؤرخين الجدد الذين جعلوا همهم تقويض الأساطير الصهيونية. ويمكن أن نضم لهؤلاء المؤرخ زئيف هرتزوج الذي بيّن أن كثيرًا من الأساطير التوارتية التي يستند إليها الصهاينة ليس لها سند تاريخي. وقد طرح عليه السؤال التالي: «إذا كان الأمر كذلك، فماذا تفعلون هنا في شرقنا العربي؟» فأجاب: «نحن هنا لأننا هنا».

وهي عبارة بسيطة لكنها تخبئ الوضع الصهيوني الحالي، وهو أن الديباجات اليهودية هي مجرد ديباجات وأن الجيب الاستيطاني الصهيوني قائم في إطار الاستعمار الدارويني الذي يغير الواقع عن طريق العنف وقوة السلاح والدعم الغربي. وأن المستوطنين الصهاينة لا يختلفون عن أي مستوطنين آخرين، سلبوا الأرض وحاولوا سحق السكان. وأن كل حديثهم عن السلام هو حديث عن سلام في ضوء إجماع المستوطنين على البقاء بحد السلاح.

٢- أزمة الهوية:

حينما أسست الدولة الصهيونية كان الصهاينة يزعمون أن ثمة تاريخًا يهوديًا واحدًا وهوية يهودية واحدة، ولكن حينما توافد أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين المحتلة اكتشفوا ما أشرنا إليه سالفًا، وهو أن العناصر غير المشتركة بينهم أهم بكثير من العناصر المشتركة . فانقسمت الدولة على أساس عرقي إلى بيض وسود، وعلى أساس إثني إلى سفارد وأشكناز، وعلى أساس ديني إلى علمانيين ودينيين. وانقسم الدينيون بدورهم إلى أرثوذكس من جهة ومحافظين وإصلاحيين من جهة أخرى.

أـ وقد فشلت الدولة الصهيونية حتى الآن في تعريف من هو اليهودي؟ وهو فشل له

أهمية خاصة في السياق الصهيوني باعتبار أن إسرائيل تدعي أنها دولة يهودية أو دولة اليهود، وهو إخفاق يضرب في صميم الشرعية الصهيونية. وقد طرحت المشكلة على الكيان الصهيوني منذ نشأته، ولكنها تفاقمت في الآونة الأخيرة.

ب ـ ومما يزيد مشكلة الهوية اليهودية تفاقمًا أن اليهودية الإصلاحية والمحافظة بدأت تصل إلى إسرائيل وقد تزايد عدد التابعين لها، هذا في الوقت الذي وصل فيه عدد الإصلاحيين والمحافظين المتدينين في الولايات المتحدة حوالي ٨٥٪ من عدد يهود الولايات المتحدة المتدينين. ويجب أن نذكر أن اليهود الملحدين (وكثيرًا من المتدينين) في الولايات المتحدة يصرون على فصل الدين عن الدولة (متبعين في ذلك مجتمعهم، منادين بذلك باعتبارهم أعضاء أقلية يرون أن ذلك في مصلحتهم)، أما اليهود الملحدون في إسرائيل فهم لا يكترثون أساسًا بالدين (وهم أعضاء أغلبية)؛ ولذا فهم لا يمانعون في أن يسيطر الأرثوذكس على جميع مناحي الحياة (وخصوصًا أن مثل هذا الاستعراض الديني يزيد من شرعية الدولة وشرعية الاستيلاء على الأراضي).

وقد أدى هذا الوضع إلى فقدان الاتزان على مستوى يهود العالم. فبينما ترى أغلبية الدياسبور (التي تهيمن على المنظمة الصهيونية) ضرورة فصل الدين عن الدولة، تحاول المؤسسة الأرثوذكسية في إسرائيل أن يلعب الدين دورًا أساسيًا في حياة الفرد الخاصة والعامة، بل أن يتحكم الدين في الحياة الخاصة للمواطنين، وأن تقوم هي بتعريف من هو اليهودي؟ والقوانين الخاصة بالعلاقة الدينية بين الفرد والمجتمع.

ولعل تزايد النسبية الأخلاقية في الولايات المتحدة، وهو أمر يترك أثره بشكل واضح على يهود الولايات المتحدة، وانتماءاتهم الدينية وشبه الدينية واللادينية المختلفة سيزيد من تصعيد الصراع بين الأرثوذكس وغيرهم. فعلى سبيل المثال يمكن للمرء تخيل استجابة الحاخامات الأرثوذكس لقيام بعض النساء من الولايات المتحدة بلبس الطاليت وحمل التوراة ومحاولة الصلاة بجوار حائط المبكي والإصرار على أن يرسمن حاخامات، وهي أمور تحرمها اليهودية الأرثوذكسية. ويمكن للمرء كذلك تخلي موقف المؤسسة الأرثوذكسية من قيام أحد الحاخامات الإصلاحيين بعقد أول قران «ديني» بين زوجين،

كليهما من الذكور، في إسرائيل!

ج ـ وتمتد قضية الهوية لتصل إلى هوية الدولة التي تسمي نفسها يهودية؛ إذ يطرح أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الكثير من الأسئلة بشأن هوية الدولة اليهودية، ومدى عمق أو حتى حقيقة انتمائها لليهودية، سواء بالمعنى الديني أم الإثني. فالمتدينون يتساءلون : كيف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية، وهي من «أكثر الدول إباحية في العالم»، ولا يقيم سكانها الشعائر الدينية اليهودية؟

ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم وموروثهم اليهودي السؤال نفسه: كيف يمكن أن نسمي الدولة الصهيونية التي تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة دولة يهودية، فبدلا من أن تكون صهيون الجديدة أصبحت ماك إسرائيل الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد) بخطى متسارعة؟

ويتساءل اليهود من ذوي الاتجاهات الثورية: هل يمكن أن نسمي دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة وتزويد النظم الفاشية في أمريكا اللاتينية بالأسلحة، وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) في جنوب أفريقيا، وحاولت قمع الانتفاضة بكل أنواع الإرهاب المتاحة، ولا تزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، كيف يمكن أن نسمي مثل هذه الدولة «يهودية»؟

د ـ وثمة بعد آخر لقضية الهوية اليهودية وهو إشكالية الشخصية اليهودية. كانت الصهيونية تزعم أنها ستشفي اليهود من أمراض المنفى (الهامشية، عدم الاشتغال بالوظائف الإنتاجية، الاشتغال بالمضاربات، عدم الانتماء) بنقلهم إلى فلسطين؛ حيث سيقوم اليهودي بتخليص الأرض الفلسطينية من أيدي العرب بأن يستولي عليها ويقوم بزراعتها بنفسه وبالعمل في الوظائف الإنتاجية المختلفة، وهو بذلك يخلص الأرض ويشفي ذاته من أمراض المنفى في الوقت نفسه.

ولكن بعد ما يزيد عن مائة عام من الاستيطان الصهيوني وبعد أربعين عامًا من تأسيس الدولة الصهيونية يلاحظ أن الإسرائيليين لا يزالون يعانون أمراض الدياسبورا، فهم يعشقون التجارة والمضاربات في البورصة، كما أنهم انسحبوا من القطاعات

الاقتصادية الإنتاجية مثل البناء (الذي يشغله العرب الآن). ويلاحظ أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع يضرب الفساد في أطنابه (المخدرات ـ الإباحية).

ويدرك الإسرائيليون تمامًا أن دولتهم دولة وظيفية تعيش على الدعم الأمني والمالي الأمريكي السخي المستمر، وأنهم بذلك لا يختلفون كثيرًا عن يهود الجيتو الذين كانوا يعملون لصالح الملك أو النخبة الحاكمة نظير ما يحققونه من أرباح ونظير الحماية التي يزودهم بها راعيهم. فكأن الدولة الوظيفية هي ذاتها مصابة بأمراض المنفى من طفيلية وهامشية.

٣- الصراع الديني العلماني:

يعد الصراع الديني العلماني هو أهم معالم أزمة الصهيونية، وهو يدور حول مواضع كثيرة ذكرنا منها إشكالية من هو اليهودي؟، ويمكن أن نذكر هنا ما يسمى «الوضع الراهن»، وهي عبارة تستخدم للإشارة للأمر الواقع الديني بين المستوطنين الصهاينة إبان حكم الانتداب. فعلى سبيل المثال، تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتغلق الشوارع في الأحياء التي تقطنها أغلبية متدينة وتترك مفتوحة في الأحياء الأخرى.

أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون (وهو استمرار لنظام الملة العثماني الذي أبقت عليه سلطات الانتداب). وقد تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله (وقد أصبح فيما بعد هو العمود الفقري لتطور التطرف الصهيوني، ذي الديباجات الدينية). ولا تعرض أفلام سينمائية ابتداء من يوم الجمعة مساء، وإن كان يصرح بلعب كرة القدم يوم السبت (على أن تباع التذاكر في اليوم السابق). وقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (باعتباره رئيس الوكالة اليهودية) خطابًا إلى زعماء حزب أجودات إسرائيل الديني وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن. وقد تم أيضًا إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية.

والعقد الاجتماعي الصهيوني يستند إلى قبول «الوضع الراهن» باعتباره الإطار المرجعي لكل العناصر التي تقبل المشروع الصهيوني. والتفاهم العملي يمكن أن ينصرف

إلى التفاصيل والفروع ولكنه غير قادر على حل المشاكل المبدئية؛ ولذا فالعقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع الصهيوني عقد واه جدًا مهدد بالتمزق دائمًا وفي أية لحظة. وقد أشرنا إلى أن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تفترض أن اليهود شعب عضوي منبوذ ونافع يمكن توظيفه خارج أوروبا لصالحها داخل إطار الدولة الوظيفية.

وقد ولدت الصهيونية على يد صهاينة غير يهود لا يكترثون باليهود وينظرون إليهم من الخارج باعتبارهم مادة استيطانية. ثم انضم إليهم صهاينة يهود غير يهود يشاركونهم عدم الاكتراث هذا. ثم ظهر دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين هودوا الصيغة عن طريق إدخال مصطلحات الحلولية اليهودية العضوية على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، ونادوا بالقومية اليهودية. لكن القومية، بالنسبة إليهم تستند في نهاية الأمر إلى قراءة صهيونية لما يسمونه «التاريخ اليهودي» تثبت وجود شعب يهودي متميز مستقل.

ولا تعد كتب اليهود المقدسة من هذاالمنظور سوى جزء من فلكلور هذا الشعب وتاريخه. ولذا فإن القومية اليهودية قومية مقدسة، ولكنها مختلفة عن الدين اليهودي ومستقلة عنه، بل معادية له أحيانًا. ثم كان هناك الجيب الصغير من الصهاينة الإثنيين الدينيين، وقد افترض هؤلاء منذ البداية أن الدين هو القومية وأن القومية هي الدين.

وقد تعايش التياران جنبًا إلى جنب: التيار الحلولي الديني (القومية كدين والدين كقومية)، والتيار الحلولي العلماني (القومية كدين)، وتقبلا سياسة الوضع الراهن، وكان من الممكن أن يستمر التياران في التعايش إلى ما لا نهاية، فالخطاب الصهيوني المراوغ كان كفيلا بذلك. ولكن قبول الوضع الراهن كان مجرد تفاهم عملي، ولم يكن مبدئيًا بأي شكل من الأشكال، تتحكم فيه توازنات القوى بين الفريقين الديني والعلماني واللاديني.

وقد ظل الوضع الراهن قائمًا لمدة سنوات طويلة، ودخلت الأحزاب الدينية كل الائتلافات الوزارية التي حكمت إسرائيل، وقنعت بدور التابع الذي يقنع بقطعة من الكعكة. ولكن مع تزايد علمنة المجتمع الصهيوني وعلمنة يهود العالم وتصاعد الخطاب الديني وزيادة عدد الصهاينة من دعاة الديباجات الدينية وظهور مشكلة إجراءات التهود زادت حدة الاستقطاب في المجتمع الصهيوني بين الدينيين والعلمانيين.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من طلبة المعاهد الدينية، فعند إعلان الدولة، وحين تم إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، كان عددهم لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩،٠٠٠ وهم آخذون في التزايد. وهذه الألوف لا تعمل؛ فهم طلبة وحسب، أي أن نسبة كبيرة من المستوطنين أصحاب الديباجات الدينية يعيشون على نفقة دافع الضرائب الإسرائيلي؛ إذ كان يستخدمها أعداء اليهود للإشارة لهم. وقد قال شيمون بيريز حين هزم في الانتخابات: «لقد هزم اليهود الإسرائيليين»، كما لو كان هناك فريقان متصارعان في إسرائيل: «يهود متدينون» ضد«إسرائيليين علمانيين»، والفريق الأخير ليس «يهوديًا».

واحتكار المؤسسة الدينية لعمليات الزواج والدفن يثير حفيظة العلمانيين. فالمهاجرون اليهود السوفييت (وعدد كبير منهم «غير يهود» حسب التعريف الأرثوذكسي) لا يمكنهم أن يتزوجوا في إسرائيل أو يدفنوا حسب الشريعة اليهودية فيها، وقد أخرج جثمان أحدهم بعد خمسة أعوام من دفنه حين شكت المؤسسة الحاخامية في يهوديته. كما أن أحد المستوطنين من أصل سوفيتي الذي لقي حتفه بعد إحدى الهجمات الاستشهادية الفلسطينية لم يتم دفنه في مقبرة يهودية.

ومما فاقم الوضع ظهور ما يسمى «الأصولية اليهودية» وهي عبارة تستخدم للإشارة إلى شكل من أشكال التطرف الديني عادة «الأرثوذكسي» (وتترجم كلمة «أصولي» أحيانا إلى كلمة «متزمت» أو «متشدد» أو «متطرف»، وهو ما يعني ترادف كل هذه المصطلحات مع لفظ «أرثوذكسي». وهذا خلل ناجم عن تطبيق مصطلح ديني تم اقتراضه من نسق ديني ما ثم تطبيقه على نسق آخر).

وهذا التيار الديني أصبح بمقدوره التحكم في رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات. ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته . وهم يستأثرون بوزارات المستقبل (التعليم ـ الإسكان ـ الأراضي ـ المهاجرين ـ الأديان) ويتحكمون في وزارة حيوية مثل وزارة التعليم، ويقال إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش . فهناك حاخامية

عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكري والديني داخل القوات المسلحة، وهي تباشر كل شؤون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية، وتخرّج أجيالا مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التي تضفي القداسة على الممارسات والجرائم التي يرتكبها الجنود ضد العرب. وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عددًا غير قليل من الضباط الأرثوذكس إلى مراتب عليا.

وفي استطلاع أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت قال ٤٧٪ من الإسرائيليين بأنهم يتوقعون حدوث حرب أهلية بين المتدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة، ولكنها «مبالغة دالة» إن صح التعبير). ودعاة الأصولية اليهودية يقفون الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أي انسحاب من الضفة والجولان ومع الاستيطان وطرد العرب، وهم مستعدون للذهاب في سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى أبعد مدى. ولا تنس أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي قديسًا ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به.

٤- الأزمة السكانية الاستيطانية:

ثمة أزمة سكانية عميقة تجعل من المشروع الصهيوني أكذوبة عقيمة دخلت طريقًا مسدودًا. فبعد مرور ما يقرب من مائة عام على الاستيطان الصهيوني وخمسين عامًا على تأسيس الدولة لا تزال الدولة الصهيونية هي دولة أقلية. فيهود العالم لم يهاجروا إليها ولم تنجح في تجميع المنفيين؛ إذ يبدو أن المنفيين في حالة سعادة غامرة بمنفاهم. ولذا اضطرت الدولة الصهيونية الاستيطانية لحل أزمتها السكانية أن تلجأ لتهجير الفلاشا (يهوديتهم إن صح تسميتها كذلك مختلفة عن اليهودية الحاخامية)، ثم سمحت بهجرة مئات الآلاف من المهاجرين اليهود السوفييت الذي تعلم مسبقًا أنهم ليسوا يهودًا أصلاً. والجدول التالي يبين عدد اليهود في إسرائيل والعالم منذ تأسيس الدولة حتى عام ١٩٩٧ (بالمليون):

السنة	عدد يهود العالم	إسرائيل	النسبة إلى يهود العالم
١٩٤٩	١١	٠ ،٦٥٠	٪٦
١٩٥٥	١٢	١ ،٥٩٠	٪١٣
١٩٧٠	١٣	٢ ،٥٨٢	٪٢٠
١٩٧٥	١٣	٢ ،٩٥٩	٪٢٣
١٩٨٠	١٣	٣ ،٢٨٣	٪٢٥
١٩٨٥	١٣	٣ ،٥١٧	٪٢٧
١٩٩٠	١٣	٣ ،٩٤٧	٪٣٠
١٩٩٥	١٣	٤ ،٥٥٠	٪٣٥
١٩٩٦	١٣	٤ ،٦٣٧	٪٣٦

وإذا كان من الملاحظ أن نسبة اليهود المقيمين في إسرائيل إلى يهود العالم تتزايد باطراد (من ٦٪ عام ١٩٤٩ إلى ٣٦٪ عام ١٩٩٦)، فإن ذلك لا يعود فقط إلى تزايد موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ولكن يفسر في جانب هام منه بما يسمى ظاهرة «موت الشعب اليهودي»، أي تناقص أعداد الجماعات اليهودية في العالم نتيجة اندماجهم، في المجتمعات الغربية خاصة، وقلة معدل الإنجاب بينهم. كما أن نسبة كبيرة من المهاجرين «اليهود» إلى فلسطين وخاصة من الاتحاد السوفييتي السابق ليسوا يهودًا.

ومما يزيد المشكلة السكانية حدة، بالنسبة للكيان الصهيوني، ظاهرة النزوح. إذ يلاحظ أن أعداد النازحين آخذة في التزايد في الآونة الأخيرة. وقد بلغ عددهم ما يزيد على ٧٠٠ ألف (أو أكثر حسب الإحصاءات غير الرسمية). وقد أصبح قرار النزوح مقبولاً اجتماعيًا، ويظهر على التليفزيون الإسرائيلي بعض النازحين ليتحدثوا عن قصص نجاحهم في الولايات المتحدة، كما تظهر في الصحف الإسرائيلية إعلانات عن إسرائيليين يودون بيع شققهم استعدادا للهجرة، وهذه أمور كانت في الماضي تتم سرًا.

كما يلاحظ أن نوعية النازحين نفسها قد تغيرت، فمعدل النازحين من بين أبناء الكيبوتسات التابعين لأكبر حركتين (الحركة الكيبوتسية الموحدة، والكيبوتس القطري)

في فئة العمر ٥٢ – ٥٤ هو ٦٪ في المتوسط. وهذا المعدل يساوي معدل نزوح هذه الأجيال في المجتمع الإسرائيلي. وقد نزحت العناصر العسكرية عن المستوطن الصهيوني بأعداد كبيرة آخذة في التزايد.

والأزمة السكانية تثير قضية الهوية اليهودية، ولكنها تثير أيضًا قضية الاستيطان وبشكل مباشر. فالصهاينة يصرحون كل يوم بعزمهم على إنشاء المستوطنات، ولكن المستوطنات في الضفة الغربية قائمة وتزداد عددًا وحجمًا، ولكن عدد المستوطنين فيها لم يزد بعد مرور ما يزيد عن ثلاثين عام عن ١٢٠ – ١٤٠ ألف (وهو عدد أقل من الزيادة الطبيعية السنوية للفلسطينيين العرب في تلك المنطقة). وكان الجيب الاستيطاني الصهيوني حتى عام ١٩٦٧م إحلاليا، ولكنه تحول إلى جيب استيطاني من النوع الذي يستند إلى التفرقة اللونية على طريقة جنوب أفريقيا؛ حيث يتم الاحتفاظ بالأرض ومن عليها من سكان ويتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة.

وقد أتاح النظام العالمي الجديد فرصًا جديدة للنظام الاستيطاني الصهيوني، بحيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل في البلاد العربية، وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسي بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى.

وتكمن المفارقة في أن توسع الجبيب الاستيطاني يتطلب المزيد من المستوطنين، أي المادة البشرية، للاستيطان والقتال وللأعمال التجارية، ولكن المادة البشرية اليهودية غير متوفرة، وإن تم استيراد مادة بشرية عربية فإن هذا يشكل تهديدًا لهوية الدولة. وقد ظهر في إسرائيل صراع بين ما سمي «الصهيونية الديموجرافية» أو «السكانية» و«صهيونية الأراضي».

٥- ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية

ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية ظاهرة خطيرة في أي مجتمع، وتزداد خطورتها في المجتمعات الاستيطانية، فهي مجتمعات تم غرسها في أفريقيا وآسيا عن طريق الاستعمار الغربي لاستيعاب الفائض البشري في القارة الأوروبية، ولتكون قواعد للدفاع عن

المصالح الغربية في آسيا وأفريقيا. وينتمي الجيب الاستيطاني الصهيوني لهذا النمط، فقد أسس ليستوعب الفائض البشري اليهودي ولوضع حل للمسألة اليهودية، وفي الوقت نفسه عليه أن يقوم بحماية المصالح الغربية نظير الدعم العسكري والسياسي والمالي الذي يقدمه له الغرب.

والجيوب الاستيطانية تفرض على سكان آسيا وأفريقيا بحد السلاح الغربي؛ ولذا فوجودها يستند إلى القوة العسكرية التي تحاول طرد السكان الأصليين أو قمعهم، ولتحقيق الحد الأدنى من الطمأنينة لجماهير المغتصبين والقوة العسكرية الصهيونية لهذا النمط، وقد أحرزت قدرًا لا بأس به من النجاح والشرعية أمام جماهير المستوطنين.

كانت العسكرية الصهيونية قد نجحت في أن ترسخ في وجدان الإسرائيليين فكرة أن إسرائيل دولة صغيرة تدافع عن نفسها ضد هجمات جيرانها العرب، بل إن الأيديولوجية الصهيونية تجعل اليهود شعبًا مختارًا (بالمعنى الديني والعلماني)، وتخلع القداسة على كل ممتلكات الدولة، وبخاصة حدودها، كما تخلع القداسة على الجيش؛ حتى أنه وصف بأنه القداسة بعينها. وقد وصف بن جوريون الجيش بأنه خير مفسر للتوراة، فمفسر التوراة هو وحده القادر على تعريف حدود إسرائيل. ومن ثم اكتسبت الخدمة العسكرية قداسة خاصة.

إلى جانب هذا كانت الخدمة العسكرية السبيل لدخول النخبة الحاكمة، ففي المجتمع الاستيطاني، لا بد أن يدفع الفرد ضريبة الدم ليصبح جديرًا بالاشتراك في الحكم وصنع القرار. ولذا كان يتم تجنيد الشباب الإسرائيلي بنجاح شديد عن طريق التوجه إلى حسهم الأخلاقي والقومي والديني، ورغبتهم في البقاء باعتبار أن الدفاع عن الذات رغبة إنسانية أخلاقية مشروعة، وباعتبار أن العرب يهددون البقاء الإسرائيلي نفسه. ومما دعم كل هذه الادعاءات انتصارات إسرائيل المتتالية الحاسمة التي ضمنت للمستوطنين البقاء وتدفق المعونات من الخارج واستمرار الأساطير الصهيونية.

وحتى فترة قريبة كان التطوع في صفوف قوات النخبة (وحدة المظليين) يعتبر من الأعمال المرموقة. حتى إن هذه القوات كانت تضطر في الماضي إلى الاعتذار لعدد من

الراغبين في التطوع لوجود ما يكفيها من العناصر. وقد سجلت حالات انتحار في الماضي، من جانب الشباب الذي كان لا يستطيع الالتحاق بالقوات المسلحة.

غير أن الوضع قد تغير، وقد لوحظ مؤخرًا انصراف الشباب من المستوطنين الصهاينة عن الخدمة العسكرية، بل الفرار منها. فأشار إسحاق مردخاي (أحد وزراء الدفاع السابقين) إلى أنه قد طرأ انخفاض جاد على مستوى الاندفاع والرغبة القتالية في صفوف الشباب الإسرائيلي.

والقضية ـ رغم خطورتها ـ لم تثر في المجتمع الإسرائيلي على نطاق واسع لأسباب عملية، منها أن الجيش الإسرائيلي يفضل أن يستبعد مثيري المشاكل ويتركهم وشأنهم، حتى لا تثار القضية وحتى لا يناقشها الرأي العام. وبينما كان الجيش في الماضي ينشر استطلاعات الرأي الخاصة بالرغبة في الخدمة في الوحدات القتالية في الجيش، نجد الآن أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن كثرة النشر حول انخفاض الدافع له أثر سلبي واضح؛ ولذا آثروا الصمت.

وترجع ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية إلى عدة عوامل:

أ ـ سقوط الأيديولوجية الصهيونية:

هناك دوافع كثيرة تدفع الإنسان للقتال من أهمها الرغبة في البقاء، وهي رغبة قد تأخذ شكلا اجتماعيًا وقد تأخذ شكلا فرديًا. فيمكن أن يعرف الفرد نفسه بأنه عضو في جماعة وبالتالي يتماهى بقاؤه مع بقاء الجماعة. وتصبح شعارات مثل: «الدفاع عن الوطن»، «حفظ الكرامة القومية»، «حدود الأرض المقدسة» لها معنى ومضمون.

ولإنجاز ذلك لا بد للمجتمع أن يقدم للفرد أيديولوجية تفسر له ما حوله وترسم له ماضيه وحاضره ومستقبله بطريقة ترضيه وتقنعه أنه يمكنه أن يحقق ذاته من خلالها. ولكن إن لم يقتنع الفرد بالأيديولوجية المهيمنة، فإن كل الشعارات السابقة تصبح سخيفة طنانة، ويبدأ الفرد في تعريف بقائه على أنه بقاء فردي علاقة له بالمجتمع، وبالتالي يبحث عن منفعته الشخصية وعن متعته الفردية، بغض النظر عن التكلفة الاجتماعية، ويجد نفسه غير قادر على الاستمرار في الحرب (أي أن النزعة الجهادية تخفت تمامًا).

ب ـ زيف الادعاءات الأمنية:

ذكرنا من قبل أن المؤسسة العسكرية الصهيونية أقنعت الشباب الإسرائيلي أن حربهم ضد العرب هي حرب دفاع عن النفس وأنه لا خيار لهم في ذلك. حتى إن أحدهم قال: إن شعار الجندي الإسرائيلي هو «يجب أن تطلق النار على عدوك، ثم فلتذرف الدمع ساخنًا»؛ حتى يمكن للجندي الإسرائيلي المسكين أن يحتفظ بنقائه الداخلي! كما كانوا يتحدثون عن «طهر السلاح الإسرائيلي»، فهو سلاح لا يستخدم إلا في الدفاع عن النفس وليس لقتل الأبرياء.

كان هذا الوضع سائدًا حتى عام ١٩٦٧ حين وصلت «الانتصارات» الإسرائيلية إلى ذروتها، ولكنها لم تأت بالسلام ولا بالنصر، كما أثبتت نظرية الأمن الإسرائيلية فشلها؛ فهي كانت قد أقنعت الإسرائيليين أن استعمال القوة سيحقق الانتصار النهائي والأمن الدائم، وأن العمليات العسكرية السريعة الإجهاضية ستحقق كل شيء. ولكن بعد بضعة شهور وجد الإسرائيليون أنفسهم في حرب استنزاف مع عدوهم المهزوم، الأمر الذي دعا المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون للحديث عن «عقم الانتصار».

ثم جاءت حرب ١٩٧٣ والعبور العربي العظيم، وبعدها جاء غزو لبنان، وهو «انتصار» إسرائيلي آخر عقيم جعل الإسرائيليين يتحدثون عن «المستنقع اللبناني» الذي غرقوا فيه، ثم أخيرًا اضطروا للانسحاب من الجنوب اللبناني في جنح الظلام. ثم هناك انتفاضة عام ١٩٨٧، وأخيرًا انتفاضة الأقصى، وحين استخدمت القوات العسكرية الإسرائيلية في ضرب المواطنين العزل.

وقد استنتج الشباب الإسرائيلي من كل هذا ما يلي:

ـ أن ذاكرة العرب حية، وأن ذراع الدولة الصهيونية الاستيطانية العسكرية القوية لا يمكن أن تضعهم في برج حصين ولا أن تقدم لهم الحماية طوال الوقت.

ـ أدرك كثير من الشباب الإسرائيلي أن الدولة الصهيونية ليست في حالة دفاع عن النفس كما يقولون، وإنما هي دولة عدوانية. كل هذا يقوض من النزعة الجهادية لدى الجندي الإسرائيلي.

ج ـ تسود إسرائيل عقلية استهلاكية (عقلية «روش قطان» أي الرأس الصغير، وهي تشير إلى الإنسان ذي الرأس الصغير والمعدة الكبيرة). وقد تصاعدت حدة هذاالاتجاه بعد موجة الهجرة السوفيتية الأخيرة، فقد أتت بالعديد من المهاجرين من الصهاينة المرتزقة، الذين ليس لهم أي انتماء أيديولوجي وغير ملتزمين إلا برفع مستواهم المعيشي. وما يهمنا في هذا السياق أن التوجه الاستهلاكي الحاد يجعل من الفرار من الخدمة العسكرية مسألة منطقية.

ولكن من المفارقات التي تستحق التسجيل والملاحظة، أن هذا الجيل الجديد الذي يفر من الخدمة العسكرية ولا يكترث بها، هو جيل «أكثر عسكرية» كما يقول أفينيري شاليط (أستاذ العلوم السياسية بالجامعة العسكرية). وقد ولد أعضاء هذا الجيل بعد عام ١٩٦٧؛ ولذا فهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن الاحتلال بالقوة مسألة طبيعية» وأن الضفة الغربية ليست «أرضا محتلة» (أوكيوبايد occupied)، وإنما أرض قومية توراتية، ومن ثم فهي أرض «متنازع عليها» (ديسبيوتيد disputed كما يقول المصطلح الأمريكي)، وعلى اليهود الاحتفاظ بها، ولا يحق لهم التنازل عنها أو التفاوض بشأنها. والعرب هنا هم «عرب يهودا والسامرة»، وبالتالي «نزع حقوقهم» لا يشكل مشكلة خلافية بالنسبة لهم.

٦- التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية:

من مظاهر الأزمة الصهيونية «التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية»، وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيوني منذ ظهوره. فهناك «الصهيونية الديبلوماسية»، و«الصهيونية السياسية»، «الصهيونية العامة»، «الصهيونية العمالية»، «الصهيونية الاشتراكية»، «الصهيونية الدينية»، «الصهيونية العلمانية»، «الصهيونية الثقافية»، «الصهيونية الروحية»، «الصهيونية التصحيحية»، «الصهيونية التوفيقية»، «الصهيونية الإقليمية»، «صهيونية بدون صهيون»، «صهيونية صهيون»، «الصهيونية المسيحية»، و«صهيونية الأغيار»، وغيرها من المصطلحات . وقد استمرت الظاهرة بعد إنشاء الدولة وإن كان إسهال المصطلحات قد عبر عن نفسه من خلال أسماء الأحزاب التي تتغير

بمعدل جنوني عند كل انتخابات وما بينها.

وإذا كان التكاثر المفرط للمصطلحات سمة أساسية للخطاب الصهيوني قبل عام ١٩٦٧ فإن الأمور ازدادت سوءاً بسبب تصاعد الأزمة، فهناك الأزمة البنيوية للصهيونية وتوتر العلاقة بين المستوطن الصهيوني ويهود العالم. ولأن الأزمة لا حل لها والتوتر يتصاعد فإن الحلول المطروحة هي الأخرى تتزايد بشكل مفرط، ومن ثم تتكاثر المصطلحات وتتداخل فتضطرب.

فظهرت مصطلحات جديدة، مثل: «صهيونية الخط الأخضر»، و«صهيونية الحد الأدنى» و«صهيونية الحد الأقصى» و«الصهيونية الديموجرافية» و«الصهيونية السوسيولوجية» و«صهيونية الأراضي» وظهرت مصطلحات ساخرة، مثل: «صهيونية دفتر الشكيات» و«صهيونية النفقة»، وهي صهيونية اليهودي الذي يحدث أصواتًا صهيونية صاخبة، ولكن نشاطه الصهيوني يتلخص في دفع التبرعات للحركة الصهيونية دون أن يستوطن في فلسطين.

وقد شبه أحدهم علاقة يهود العالم بإسرائيل بعلاقة الرجل بطليقته، فهو لا يريدها ولكنه يدفع لها نفقة، قد تكون سخية، حتى يستمر في الاستمتاع بحياته مع عشيقته أو زوجته الجديدة (وهي في هذه الحالة وطنه الذي يعيش فيه).

وهناك أيضًا «الصهيونية اللوكس»، وهي صهيونية المستوطنين في المستوطنات التي أقيمت حديثًا، وهي مستوطنات فاخرة، تتطلب إقامتها وإدارتها تكاليف باهظة ولا تخضع لمعايير الجدوى الاقتصادية، ويسكنها شخصيات استهلاكية ليسوا مثل المستوطنين القدامى الذين كانوا يحملون المحراث بيد والبندقية بالأخرى.

أما «الصهيونية المكوكية»، فهي صهيونية المستوطنين الذين يسكنون وراء الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨)؛ بسبب انخفاض أسعار الشقق، ولكنهم يعملون في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، فحركتهم اليومية حركة مكوكية من الضفة الغربية إلى تل أبيب (على سبيل المثال) والعكس. ثم ظهر مؤخراً مصطلح «ما بعد الصهيونية» (على وزن «ما بعد الأيديولوجية» و«ما بعد الرأسمالية» و«ما بعد الحداثة») وكلمة ما بعد في كل

هذه المصطلحات تعني أن النموذج المهيمن (الصهيونية في هذه الحالة) قد تفكك وتآكل، ولم يحل محله نموذج آخر. هذا قليل من كثير، والقائمة لم تنته بل هي آخذة في التزايد يومًا بعد يوم.

ونظرًا لكل هذه التطورات أصبحت كلمة «صهيونية» (تسيونوت بالعبرية) تعني «كلام مدع أحمق» (الجيروساليم بوست ٢٦ أبريل ١٩٨٥) وتحمل أيضًا معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني مبالغ فيه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسية (الإيكونومست ١٢ يوليه ١٩٤٨، وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية، ص ٢٦).

ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج، أي الصهاينة التوطينيين الذين يحضرون إلى فندق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع؛ ولذا فهي ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية.

وتشير في الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها إن هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، ولكن عليهم إلقاؤها على أية حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «أعطه صهيونية» هو «فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى»، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول.

٧- انهيار إسرائيل من الداخل:

والآن بعد أن تعاملنا مع أهم جوانب أزمة التجمع الاستيطاني الصهيوني لابد أن نطرح السؤال التالي: هل هذا يعني أن هذا التجمع سينهار من الداخل من تلقاء نفسه بسبب أزمته وتناقضاته الداخلية الحادة، كما يمني البعض نفسه؟ الإجابة على هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية:

١ – مقومات حياة التجمع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم ماليًا وعسكريًا وسياسيًا من الولايات المتحدة والعالم الغربي والجماعات اليهودية

فيه؛ ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

٢- يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية، وبالتالي حينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.

٣- توجد مؤسسات ديموقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان في التجمع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.

٤- ثبت أن كثيرًا من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين، طالما أنه لا يتحداها أحد من الخارج. وأعتقد أن الحاسوب (الكومبيوتر) يساهم في هذه العملية؛ إذ يمكن للإنسان المأزوم والمتفسخ بشريًا أن يستمر في العمل من خلاله، وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذًا جنسيًا أو تعاطى الخمور والمخدرات في الليلة السابقة.

إن القضاء على الجيب الاستيطاني الصهيوني العنصري لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكل في التجمع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا، كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس قوة ضخمة لا تقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تودي به أو أن تؤدي إلى انهياره.

المسألة الفلسطينية والإدراك الصهيوني

الظاهرة الصهيونية ظاهرة استعمارية استيطانية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وهذه المقاومة ليست إرهابًا وإنما هي فعل من أفعال المقاومة، وهذا ما قاله بن جوريون نفسه عام ١٩٣٨ حين قال: «نحن هنا لا نجابه إرهابًا وإنما نجابه حربًا، وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب لما يعتبرونه اغتصابًا لوطنهم من قبل اليهود ـ ولهذا يحاربون، ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، فإذا ما نال من أحدهم التعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذي يحارب ضد

اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعًا... وحينما نقول: إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا ـ فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب، ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم؛ لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن ، ونأخذها منهم».

وإدراك الواقع في لحظة صدق لا يعني البتّة التعامل معه بطريقة أخلاقية أو واقعية، بل إن إدراك الصهاينة لحقيقة مشروعهم الصهيوني الاستيطاني الإحلالي وأبعاد المقاومة العربية وعمقها قد يؤدي إلى مزيد من الشراسة.

ولنضرب مثلا على هذا النمط الصهيوني بفلاديمير جابوتنسكي ـ زعيم الحركة الصهيوني التنقيحية ـ الذي أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية مغتصبة للأرض والعرب أمر حتمي، فلم يختبئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية عن الحقوق اليهودية الأزلية، ولم يختبئ وراء الحجج الليبرالية عن شراء فلسطين، أو الحجج الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السيف.

ولذلك، طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تمامًا مثلما يتسلح المستوطنون الأوروبيون في كينيا وفي كل مكان)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيوني. فالعرب ـ حسبما صرح ـ لن يقبلوا الصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة حائط حديدي.

إن نظرية الجدار الحديدي هي جزء من الإجماع الصهيوني التي طورها شارون إلى مفهوم «الجدار الفولاذي»، وأكدها نتنياهو في كتابه مكان تحت الشمس في عبارة «سلام الردع»، ووافق باراك عليها بطريقة ملتوية مراوغة.

ويتحدث ايان لوستيك في مقال له بعنوان «إسرائيل ومنطق الجدار الحديدي» عن مراحل خمس لاستراتيجية الجدار الحديدي، لتحويل الصراع الوجودي بين الصهاينة والعرب الفلسطينيين إلى سلام قائم على التوافق وليس العدل على النحو التالي:

المرحلة الأولى: بناء الجدار الحديدي.

المرحلة الثانية: حماية الجدار الحديدي من محاولات تصديعه.

المرحلة الثالثة: هزائم مكلفة تؤدي إلى تحولات لدى الخصوم، من متطرفين عنيدين إلى معتدلين على استعداد للمساومة.

المرحلة الرابعة: يدرك حماة الجدار الحديدي تحولات القوة من التطرف إلى الاعتدال داخل المعسكر السياسي للخصم؛ وذلك يدفعهم إلى تحويل سياستهم نحو التفاوض والمساومة.

المرحلة الخامسة: تؤدي المفاوضات إلى تسوية للصراع تقوم على جماعية متساوية.

والنتيجة نفسها توصل إليها بن جوريون؛ إذ إن إدراكه للمقاومة العربية كان يحيده التزامه بالرؤية الصهيونية؛ ولذا توصل إلى أنه لا مناص من فرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحد السيف. ولذا لم يبحث الزعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام ـ على حد قوله ـ مستحيل، كما لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا سراب بغير شك.

إن السلام مع العرب بالنسبة لبن جوريون إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل إلى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض. ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [فالغرب] لن يستسلموا في إرتس يسرائيل إلا بعد أن يستولي عليهم اليأس الكامل، يأس لا ينجم عن فشلهم في الاضطرابات التي يثيرونها أو التمرد الذي يقومون به وحسب وإنما ينجم عن نمونا [نحن اصحاب الحقوق اليهودية المطلقة في هذا البلد].

ثم استمر يقول: لا يوجد مثل واحد في التاريخ لأمة فتحت بوابات وطنها [للآخرين]. إن تشخيصي للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأنني أؤمن بالقوة، قوتنا التي ستنمو، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه». وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام» مع العرب.

ولا يختلف شاريت عن هذه الرؤية التي تذهب إلى أن المثل الأعلى الصهيوني لا بد أن تسانده القوة؛ حتى يمكن فرضه على الواقع. وهو أيضًا يتبنى سياسة الحائط الحديدي، شأنه في هذا شأن بن جوريون وجابوتنسكي: «لا أعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى تنمو قوتنا. ولكني أعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقًا ثابتًا مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما باعتبارنا قوة فعلية».

وقد أدرك وايزمان منذ البداية أن أي سلام مبني على العدل، أي يؤدي إلى إعطاء الفلسطينيين حقوقهم السياسية والدينية والمدنية كافة، عواقبه وخيمة؛ إذ سيؤدي إلى «سيطرة العرب على الأمور». فلو تم تأسيس حكومة في إطار هذا السلام العادل، فإن العرب سيمثلون فيها، وهي حكومة ستتحكم في الهجرة والأرض والتشريع وبذا سيحقق الصهاينة السلام ولكنه «سلام المقابر» (على حد قوله). والصهاينة شأنهم شأن كل من في موقفهم، كانوا لا يبحثون عن سلام المقابر لأنفسهم، وإنما للآخرين.

ولذا فالاتفاق الذي يتحدث عنه جابوتنسكي ثم بن جوريون وشاريت ووازيمان ليس اتفاقًا مع العرب باعتبارهم كيانًا مستقلاً له حقوقه وفضاؤه التاريخي والجغرافي، إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تغييبه أو ترويضه عن طريق القوة والحائط الحديدي؛ ولذا فهو يقنع بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها الآخر. وهذه رؤية ولا شك واقعية: إذ كيف يمكن أن يتوقع أحد من العرب أن يخضعوا طواعية لرؤية تلغي وجودهم؟

وهذا على كل ما أدركه العرب منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلنة عن السلام والحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والأخذ بيد العرب، كان العرب يعرفون حقيقة الصهيونية وأنها تحاول أن تغيبهم أو تهمشهم؛ لأنهم ـ حسب التصور الصهيوني ـ كائنات غائبة (أرض بلا شعب) أو متخلفة أو هامشية لا تفهم سوى لغة القوة، وأنهم قد يكتفون في نهاية الأمر بدولة لا سيادة لها، وأنهم سيستمرون خائفين قانعين بحياتهم المتخلفة.

فجاءت انتفاضة ١٩٨٧، وظهر العربي الغائب وفي يده حجر يلقي به على الصيهوني وعلى أوهامه، فيشج رأسه ويزلزل الأسطورة، ويتنبه هذا الصهيوني فجأة إلى أنها أرض لها شعب. وقد قال نسيم زفيلي (أحد رؤساء قسم الاستيطان بالوكالة اليهودية): إن هناك حالة فزع وهلع بين المستوطنين في الضفة الغربية (وهذه هي الحالة التي تنتاب الإنسان حينما يفقد الوهم فيصبح عاريًا أمام الحقيقة).

وقد رفض يسرائيل هاريل هذا الوصف، وأعطى تحليلا أعمق وأشمل؛ إذ قال: «إن اليقين القديم [أي الأسطورة التي تدور في إطار الشرعية الصهيونية] الذي شد أزر جوش إيمونيم قد اهتز لأول مرة. فهناك قلق بشأن الاحتمالات السياسية. وهو قلق لا ينصرف إلى المستوطنات نفسها وحسب، وإنما ينصرف إلى [ما هو أعمق] إرادة الأمة ومن جذورها ومن طبيعة رؤاها».

ثم أضاف «لقد دخلنا مرحلة جديدة في النضال من أجل إرتس يسرائيل؛ فالعرب لا يريدون الضفة الغربية وحسب بل عكا ويافا أيضًا. والحكومة تعطي العرب إشارات إلى أن مكاننا هنا في الضفة الغربية مؤقت». فكأن الانتفاضة قد همشت المستوطنين ثم غيبتهم وطرحت قضية الوجود الصهيوني نفسه.

وقد عبر الفيلسوف الإسرائيلي ديفيد هارتمان عن القضية إذ قال: «إن ثورة الحجارة تقول للصهاينة: نحن لانخاف منكم، وبطريقة أخرى يقولون: أنتم لستم هنا». فاضطرت الدولة الصهيونية للاعتراف بالوجود الفلسطيني وسقطت مقولة «العربي الغائب».

ثم جاءت انتفاضة الأقصى والاستقلال لتقضي على بقية الأوهام الصهيونية وتساقطت مقولتا العربي المتخلف والعربي الهامشي، ومن أحسن المقالات التي كتبت عنها مقال الكاتب الإسرائيلي يوري أفنيري تحت عنوان «الضربة القاضية لم تسدد بعد». يقول أفنيري في مقاله:

«يدخل ملاكمان الحلقة: واحد منهما بطل الوزن الثقيل، والآخر وزن الريشة.

ويتوقع الجميع أن يقوم البطل بتسديد ضربة قاضية تقضي على غريمه الهزيل في الجولة الأولى.

ولكن وبأعجوبة تنتهي الجولة الأولى، والضربة القاضية لم تسدد بعد، ثم الجولة الثانية، ويستمر نفس الوضع. وبعد الجولتين الثالثة والرابعة لا يزال خفيف الريشة واقفًا، وهو ما يعني أنه هو الرابح الحقيقي، لا بالضربة القاضية ولا بالنقط، وإنما لمجرد أنه لا يزال واقفًا ومستمرًا في الصراع مع غريمه القوي».

هذه الصورة المجازية تنطبق تمام الانطباق على المواجهة بين قوى الاحتلال الإسرائيلي والشعب الفلسطيني. فالجيش الإسرائيلي القوي لم ينجح حتى الآن في تحطيم العمود الفقري للانتفاضة. لقد جرب هذا الجيش كل شيء: البنادق والطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة والتصفية الجسدية وتحطيم أحياء بأسرها والحصار وتحطيم المنازل وقطع الأشجار، ومع هذا في الشهر العاشر (وقت كتابة هذا البحث) لا يزال الفلسطينيون واقفين يصارعون غريمهم.

لكل هذا تساقطت مقولتا العربي المتخلف والعربي الهامشي، فتفككت الخريطة الإدراكية الصهيونية، فجن جنون الصهاينة، فلجأت المؤسسة الصهيونية (التي طالما تحدثت عن إسرائيل باعتبارها واحة للديموقراطية) إلى ضرب العسكريين والمدنيين بالطائرات والمدافع والرشاشات، وبدأ الاغتيال المؤسسي للقيادات الفلسطينية والاغتيال العشوائي للنساء والأطفال وكل من يقف في طريق جيش الاحتلال. وانتهى الأمر بوصول شارون الذي وعد بالقضاء على الانتفاضة في مائة يوم، وقد انقضت المهلة دون أن ينجح في تحقيق وعده، وليس هناك في الأفق ما يبشر بأنه سيكتب له النجاح.

نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية

يتحدث الإعلام الغربي عن دائرة العنف، ونحن نتحدث عن دائرة المقاومة والقهر. ولا يوجد مخرج من هذه الدائرة داخل الإطار الصهيوني؛ إذ لا يمكن توقع سلام في إطار بنية القمع والظلم والعدوان هذه، أي في إطار الصهيونية، بينما يمكن أن نتحرك نحو

قدر معقول من السلام من خلال نزع الصبغة الصهيونية (الاستيطانية الإحلاليـة). ونـزع الصبغة الصهيونية لا يعني إبادة الإسـرائيليين أو القـضاء علـى هويتـهم الإسـرائيلية أو اليهودية (كما يحلو للبعض أن يصور الأمر)، وإنما يعني خلق الإطار القانوني والـسياسي والأخلاقي الذي يزيل أسباب التوتر والصدام.

ولعل ما حدث في جنوب أفريقيا (فك الجيب الاستيطاني بطريقة سلمية بعـد أربعـة قرون من الظلم والاستغلال والعنصرية والاستعمار الاستيطاني الشرس) يمكن أن يكون نموذجًا يحتذى، ومؤشرًا على ما يمكن أن يحدث في الجيب الاستيطاني الصهيوني.

ولعل جوهر نزع الصيغة الـصهيونية هـو فـصل المـسألة الإسـرائيلية عـن المـسألة اليهودية، بحيث يرى الإسرائيليون أنفسهم باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من المنطقة (ولـيس كما يقول «أبا ايبان»: في المنطقة ولكن ليسوا منها). وعملية نزع الـصبغة الـصهيونية لا تتم دفعة واحدة وإنما تبدأ بإعلان النوايا واتخاذ خطوات قد تكون رمزيـة ولكنـها ذات دلالة عميقة، مثل: أن تلغي الدولة الصهيونية قانون العودة، وتوقـف بنـاء المـستوطنات، وتعلن نيتها تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة الخاصة بإعادة الفلسطينيين إلى ديارهم.

ويتبع ذلك خطوات أكثر راديكالية، مثل: إلغاء الـصندوق القـومي اليهـودي، وفـك المستوطنات، وتعريف الحدود الدولية للدولة الجديدة، وتشكيل لجان للتحقيق في المذابح التي ارتكبت ضد الفلسطينيين لتعويضهم مادّيا ومعنويًّا. ثم يمكن بعد ذلك أن تبدأ الدولة الجديدة في السماح للفلسطينيين بالعودة في إطار مقدرتها الاسـتيعابية، وهـي ولا شـك عالية، فإسرائيل الصهيونية قد نجحت في استيعاب أكثر من نصف مليون مهاجر يهـودي سوفييتي في العشر سنين الأخيرة، رغم أنهم ليسوا من أبناء المنطقـة، كمـا أن مـؤهلاتهم عالية لدرجة كبيرة لم يكن التجمع الصهيوني في حاجة إليها.

على عكس الفلسطينيين فهم أبناء المنطقة يعرفونها أرضًا وجوًا وبحرًا، وأعداد كبيرة منهم تعمل بالفعل داخل الاقتصاد الإسرائيلي أو عندهم من المـؤهلات والكفـاءات مـا يسهل عملية استيعابهم. وستكون القدس عن حق هي العاصمة الأبدية للدولة الجديـدة

وهي دولة متعددة الأديان؛ ولذا فهناك مجال للهوية الدينية اليهودية أن تعبر عن نفسها في إطارها.

ويتوج كل هذا باندماج الدولة الجديدة في نظام إقليمي نابع من مصالح سكان المنطقة أنفسهم ومن منظوماتهم الحضارية والأخلاقية. وعلى الجانب الفلسطيني لا بد من إعلان أن الإسرائيليين ممن ولدوا ونشأوا في فلسطين، بل ومن استوطنوا فيها ويودون أن تكون فلسطين وطنًا لهم، لهم حق المواطنة الكاملة في هذا الكيان الجديد الذي يضم الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي.

وقد يقول البعض: إن مثل هذا الاقتراح هو من قبيل الحلم المثالي، وهو بالفعل كذلك. ولكنه مع هذا قابل للتنفيذ وهو أفضل بكثير من الأمر الواقع، والوضع القائم نتاج حالة الحرب الدائمة أو الراقدة والهدنة المؤقتة، الذي يستند إلى موازين القوى الداروينية، وكل أنواع الأسلحة من السلاح النووي والأبيض إلى الحجارة والعصيان المدني، وهو وضع لم يأت لأحد بالسلام أو الطمأنينة.

ولعل تعوّدنا على منظر الدماء وإدماننا لصوت المتفجرات وتقبلنا للعنف والقوة كسبيل وحيد لحسم الصراعات هو السبب وراء استخفافنا الكامل بالحلول الراديكالية، ووراء هرولتنا وراء محاولات السلام الجارية التي تهدف إلى ترجمة الوضع القائم المبني على الحرب إلى وضع سلام دائم، وهو أمر مستحيل؛ فهو ضد طبيعة الأشياء، فمثل هذا السلام تقوضه بنية الظلم التي تولد التوتر والصراع الدائم.

وقد يقول البعض: إن نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية يعني تقويض دعائمها وبالتالي سقوطها، والرد على هذا بسيط، أن الدولة التي لا تقوم إلاّ على أساس استبعادي عنصري لا تستحق البقاء.. والله أعلم.

أولاً: المراجع العربية:

ـ إبراهام ليون، *المفهوم المادي للمسألة اليهودية*، ترجمة وتقديم عماد نويهض، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٩.

ـ إبراهيم أبو لغد (إعداد وتحرير) وأسعد رزوق (ترجمة)، *تهويد فلسطين*، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطيني، ١٠٧٢.

ـ أحمد صدقي الدجاني (تحرير)، *الحركة الصهيونية والصراع العربي الإسرائيلي: دورس في مائة عام*، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠٠٠.

ـ أسعد رزوق، *إسرائيل الكبرى*، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٣.

ـ إسماعيل راجي الفاروقي، *أصول الصهيونية في الدين اليهودي*، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٣/ ١٩٦٤.

ـ ألن تايلور، *تاريخ الحركة الصهيونية*: تحليل للديبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧ ـ ١٩٤٧ (ترجمة بسام ابو غزالة)، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٦.

ـ أمين عبدالله محمود، *مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى*، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤.

ـ أنيس صايغ (إشراف)، ولطفي العابد ومرسي عنز (ترجمة)، والدكتور أسعد رزوق (تعريف)، وهلدا شعبان صايغ وإبراهيم العابد (مراجعة)، *الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية*، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٠.

ـ إيمان حمدي، *معسكر السلام الصهيوني: اتجاهات الثنائية القومية والتقسيم في الحياة السياسية الإسرائيلية* (١٩٢٥ – ١٩٩٦) القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٧.

ـ جلال الدين عز الدين علي، *الصراع الداخلي في إسرائيل (دراسة استكشافية أولية)*، أبو ظبي، دولة الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٩.

ـ جواد الحمد (تحرير) ، *المدخل إلى القضية الفلسطينية*، عمّان، دار البشير، ١٩٩٧.

ـ حبيب قهوجي (إشراف)، *استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة*،

دمشق، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨.

ـ حبيب قهوجي (إشراف) ، *الصهيونية والعنصرية بين الفكر والممارسة*، دمشق، مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠.

ـ حبيب قهوجي (رئيس تحرير)، *الهيئات والأجهزة الصهيونية واليهودية العالمية وعلاقتها بإسرائيل*، نشرة الأرض، ١٩٨٢/١٢/٢١.

ـ حسن خضر (ترجمة وتقديم)، *قصر الأواني المهمشة: دراسات في نقد الصهيونية*، رام الله، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٠.

ـ غسان إسماعيل عبد الخالق وعلي محافظة (تحرير)، *صراع القرن: الصراع العربي مع الصهيونية وإسرائيل عبر مائة عام*، عمّان، مؤسسة عبدالحميد شومان، ١٩٩٩.

ـ ريجبينا الشريف، *الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي*، ترجمة أحمد عبدالله عبدالعزيز، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥.

ـ صبري جريس، *تاريخ الصهيونية (١٨٦٢ ـ ١٩٤٨)، الجزء الأول، التسلل الصهيوني إلى فلسطين (١٨٦٢ – ١٩١٧)* ، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفسلطينية، ١٩٧٧.

ـ صبري جريس، *السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين (١٩٣١ – ١٩٣٦)*:

٢- *نمو الهجرة والاستثمارات والاستيطان*، شؤون فلسطينية، عدد ١٤٤ – ١٤٥، آذار ـ نيسان / مارس أبريل، ١٩٨٥.

ـ صبري جريس، *السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين (١٩٣١ – ١٩٣٦)*:

٤- *محاولات التفاهم مع العرب*، شؤون فلسطينية، عدد ١٤٨ – ١٤٩، تموز ـ آب / يوليو ١٣٤، كانون الثاني/ يناير، ١٩٨٣.

ـ صبري جريس، *اليمين الصهيوني: نشأة وعقيدة وسياسة*، بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٨.

ـ صبري جريس وأحمد خليفة (تحرير)، *دليل إسرائيل العام*، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦.

ـ عبدالوهاب محمد المسيري، موسوعة *اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري* جديد، ٨ مجلدات، القاهرة، دار الشرق، ١٩٩٩.

ـ عبدالوهاب محمد المسيري، *نهاية التاريخ*: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني: الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.

ـ مركز دراسات الوحدة العربية، *العرب ومواجهة إسرائيل: احتمالات المستقبل* (بحوث ومناقشات أعمال الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

(حذفنا المراجع الأجنبية للاختصار).